

حين يصبح تطوير الذات صناعة للوهم

في كل مرة تقرأ مقالًا أو تشاهد مقطعًا يخبرك بأن سبب تعثرِكَ هو أنك لم تستيقظ في الخامسة صباحًا، أو لم تقرأ خمسين كتابًا هذا العام، أو لم "تستثمر في نفسك" بما يكفي، يجدر بك أن تتوقف قليلًا. فربما لا تكون أمام نصيحة بريئة، بل أمام فلسفة كاملة تنظر إلى الإنسان بوصفه مشروعًا اقتصاديًا، وإلى الحياة سابقًا لا ينتهي نحو نسخة "أفضل" من الذات.

صحيح أن تطوير الذات في جوهره فكرة نبيلة؛ فالتعلم المستمر واكتساب المهارات وتهذيب النفس قيم لا خلاف عليها. لكن الإشكال يبدأ حين يتحول من وسيلة للنمو الأصيل إلى صناعة تجارية تعيد تعريف النجاح والقيمة الإنسانية، وتتغذى على ما يسميه علماء الاجتماع "الثقافة العلاجية"، حيث تُختزل التجارب الإنسانية في لغة نفسية مبسطة وتُقدَّم وصفات جاهزة بوصفها حلولًا شاملة لكل تعثر، لتصبح صناعة تباع الوهم والشعور بالنقص وتضمن بقاء الفرد مستهلكًا دائمًا.

تعود جذور هذه الصناعة إلى الولايات المتحدة في بدايات القرن العشرين، حين ربطت كتب النجاح الشخصي الإنجاز بالإرادة الفردية المطلقة. ثم جاء التحول الأكبر في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي مع صعود الفكر النيوليبرالي، الذي حمل الفرد مسؤولية كاملة عن نجاحه أو فشله. تراجع الحديث عن المجتمع والظروف والفرص، وارتفع صوت يقول: إذا فشلت فابحث عن الخلل داخلك. وهكذا ترسخت ثقافة فردانية جعلت تحقيق الذات القيمة العليا، متجاهلةً التعقيد الحقيقي للعوامل الاجتماعية والاقتصادية التي تشكل مسار الإنسان.

وسائل التواصل وصعود مجتمع الإرهاق

مع صعود وسائل التواصل الاجتماعي تصاعفت قوة هذه الفلسفة. تحول المؤثرون إلى مسوقي أسلوب حياة كامل: صور السفر والرفاهية وروتين الإنتاجية الخارقة. وأصبحت الصناعة تباع الشعور بالنقص؛ فالراعي عن ذاته لا يشتري دورات، أما من يشعر بأنه "متأخر" دائمًا فيبقى زبونًا وقيًا.

هكذا يتحول الطموح إلى فخ "الاحترق النفسي"، أو ما يسميه الفيلسوف بونغ تشول هان بـ"مجتمع الإرهاق"، حيث يُعاد تقديم الضغط بوصفه فضيلة، والعمل المفرط معيارًا للجدية والطموح، ويتأجل الرضا إلى مستقبل لا يأتي.

ولم يعد هذا المشهد مجرد خطاب ثقافي، بل أصبح اقتصادًا عالميًا ضخماً تُقدَّر قيمته بعشرات المليارات، مدفوعًا بتطبيقات الإنتاجية ومنصات التدريب الشخصي. ولم يبقَ هذا التوسع في الغرب، بل يشهد اليوم نموًا سريعًا في أسواقنا العربية، مستهدفًا شغل الجيل الجديد ورغبته في مواكبة التحولات التنموية، لكن عبر آليات استهلاكية تُسلِّع الطموح وتحول القلق الإنساني إلى مادة للربح.

اللايف كوتش والثقافة العلاجية: خصخصة المشاكل وتسليع القلق

تجسد هذا التسليع في الصعود المتسارع لظاهرة "اللايف كوتش"، بوصفها مهنة هلامية يدعي أصحابها القدرة على توجيه خيارات البشر المصيرية عبر شهادات سريعة وحزم تدريبية معلبة، مكرسةً فكرة "خصخصة المشاكل" وتحميل الفرد وحده عبء ظروفه الموضوعية.

امتدت هذه الصناعة لتتحالف مع موجات مدعي العلاج بالطاقة والروحانيات الجديدة، وتسليع ممارسات الاسترخاء كاليوغا، محوِّرةً إياها من أدوات للسكينة إلى منتجات تُباع تحت وعود "جذب الوفرة" و"الخلاص الفردي". كما تروج لفكرة الانسحاب من الروابط الأسرية والاجتماعية تحت شعار "حماية الطاقة الإيجابية"، متأثرةً بخطاب علاجي يبالغ في تصوير العلاقات بوصفها مصادر للضرر بدل كونها مصادر للمعنى والدعم.

لم تقتصر آثار هذه الثقافة على الجانب المهني، بل أنتجت منظومة أخلاقية جديدة تُقاس فيها الفضائل بقدرتها على زيادة الإنتاجية، ويتقدم سؤال "كيف أحقق ذاتي وأزيد دخلي؟" على سؤال "ماذا أقدم

لمجتمعي؟"، فيتراجع الربط بين النجاح والمسؤولية الاجتماعية.

بين التزكية الإسلامية والرأسمال الاجتماعي: الحاجة إلى إنسان متوازن

في المجتمعات الإسلامية يظهر هذا التحول أكثر حساسية. فالإسلام يدعو إلى تزكية النفس لا إهمالها، لكن بين التزكية والتطوير التجاري فرق جوهري. التزكية تربط الإنسان بخالقه، وتوازن بين حق النفس وحق الأسرة والمجتمع، وتبدأ بالإخلاص وتنتهي بالإحسان. أما الخطاب الاستهلاكي فيتمحور حول الأنا، ويختزل مفاهيم عميقة كالنية والجهد والالتزان في شعارات تحفيزية سطحية.

انتقلت هذه الفلسفة إلينا مع العولمة والمنصات الرقمية، فاستوردنا أدوات التطوير أكثر مما ناقشنا سياقاتها الفكرية. بينما في بلداننا، قام البناء الاجتماعي تاريخياً على الأسرة الممتدة وصلة الرحم والتكافل، ولم يُقَسَّ النجاح يومًا بالثروة والشهرة وحدهما، بل بما يقدمه الإنسان لأسرته ومجتمعه ووطنه.

يكمن الخطر الأكبر في تآكل "الرأسمال الاجتماعي"، ذلك الرصيد من الثقة والتعاون الذي تُبنى عليه الحضارات. وتساهم خوارزميات التواصل في تعميق هذا المأزق بمكافأاتها للمحتوى المثير، فينتشر روتين "الإنتاجية الخارقة" على حساب التوازن النفسي وجودة العلاقات، وتراجع قيم الرفق والوقت المشترك والالتزام الاجتماعي.

في الختام، ليس الحل في التخلي عن الطموح، بل في إعادة صياغة مفهوم التطور ليكون نفعاً متعددًا. فتطوير الذات الحقيقي يتطلب وعياً ناقداً يميز بين المعرفة المفيدة والوهم التجاري، ويجمع بين تهذيب النفس وخدمة المجتمع. الأفراد يحققون الإنجازات، لكن المجتمعات وحدها هي التي تصنع الحضارات، والنهضة لا تُبنى على أفراد منهكين، بل على بشر متوازنين يحملون طموحاً واعياً ومسؤولية مشتركة.